الحياة العملية وانقلاب التفكير الغربي

للأستاذ محمد ثابت الفندى

كيف نفهم الحقيقة ؟

نكاد نفهم جميعاً من لفظ « الحقيقة » معنى واحداً وإن اختلفت ألفاظنا فى التعبير عن ذلك الفهم . فأنت إذا سألت أى إنسان فى مصر سواء أكان ممن له حظ من المعارف أو لم يكن عما يفهمه من هذا اللفظ ، فإنه سيجيبك بلا عناء ولا تفكير بعبارة تقرب من هذه « الحقيقة إنما هى تمثيل المعانى الذهنية للأشياء التى فى خارج الذهن تمثيلا مطابقاً لها »

فنحن نقول : « إن الأرض تدور حول الشمس » حقيقة من الحقائق لأن المعنى الذى نفهمه من هذه العبارة نعتقد أنه يمثل تماماً ما يحدث فى الخارج من دوران الأرض حول الشمس. ونقول : إن زوايا المثلث تساوى قائمتين ، وإن الأجسام تتجاذب ، وإن المعادن تتمدد بالحرارة ، وإن الله موجود ، نقول عنها حقائق أيضاً لأننا نعتقد أن هذه الأقوال تطابق تماماً ما يجرى فى الخارج وتماثل الواقع أتم مماثلة .

فمعيار الحقيقة عندنا هو مطابقة أفكارنا وتصوراتنا للخارج وتمثيلها للواقع . فإذا لم تمثل أفكارنا شيئاً من الأشياء الواقعية فإنا نقول عنها إنها وليدة الوهم والخيال ، ونعتبرها باطلة وليست حقيقية. فنحن نعد باطلا قول من يقول : بأن الجن موجود ، وإن السماء تمطر ذهباً ، وإن الأرض تقوم على قرن ثور ، لأننا نعتقد أن هذه التصورات لا تمثل أشياء موجودة بالفعل. إذن فالمعيار الذى نزن به الأفكار فنميز بين الحقيقة والباطل إنما هو المماثلة والمطابقة للخارج ، إذ الحقيقة عندنا هى الفكرة التى تمثل شيئاً موجوداً ، والباطل ما لم يكن كذلك . هكذا نفهم نحن الحقيقة .

خطأ هذا الفهم

إلا أن الشوط الواسع الذى قطعه الفكر الانسانى فى مراقى العلوم والمعارف ، وأسلوب الحياة التى يحياها الانسان فى هذا العصر ، وانقلاب الأذواق والمشارب والملابس والنظم السياسية والاجتماعية والصناعية وغيرها ، كل ذلك استتبع انقلاباً خطيراً فى أسلوب التفكير والنظر الى الحقائق ، فانقلب بذلك المعيار الذى نركن إليه فى تقرير الحقيقة وتمييزها عن

الباطل . ولبيان ذلك نستحسن أن نحصر كلامنا في صنف من الحقائق لا يختلف فيها اثنان لوضوحها وجلائها مثل الحقائق الرياضية .

نحن جميعا نعتقد مثلا : أن المستقيم أقرب بعد بين نقطتين ، وأن من نقطة واحدة خارج مستقيم ما لا يمكننا أن نقيم من المستقيمات الموازية له إلا مستقيما واحداً . وأن مجموع زوايا المثلث الثلاث يساوى قائمتين .

هذه بعض الحقائق التي تبرهنها هندسة إقليدس ، نكاد نعرفها جميعاً ونجزم بصحتها ونسخر ممن تغيب عنه لبداهتها ، ونصفها دائماً بأنها «حقيقة» لماذا ؟ لأننا نعتقد اعتقاداً جازماً بأنها أفكار تمثل الواقع أتم تمثيل ، إلا أن الاعتقاد بحقيقتها يزول إذا علمنا : —

أن رياضيات أنشطين تقول بأن المنحنى — لا المستقيم — هو أقرب بعد بين نقطتين .

وأن هندسة لوبتشفسكى (١٨٣٥) تبرهن على أنه من نقطة واحدة خارج مستقيم ما يمكن أن نقيم عدداً لا يتناهى من المستقيمات المتوازية ، بينما تبرهن هندسة ريمان (١٨٥٤) على أنه لا يمكن أن يقام مستقيم البتة من مثل تلك النقطة . وأن زوايا المثلث تساوى أقل من قائمتين وفقاً لهندسة لوبتشفسكى ، أو أكثر من قائمتين وفقاً لهندسة ريمان .

مما تقدم نخلص بأن للمسائل الرياضية — وهى مثل أعلى للحقائق — أكثر من حل واحد ، وكل حل منها يدعى صاحبه أنه الحق الذى لا خداع فيه . فهندسات إقليدس ولوبتشفسكى وريمان ورياضيات انشطين كلها تدعى أنها كذلك ، ولكن أى واحدة منها تمثل الموجودات فى أنفسها ؟ إذا لجأنا إلى هذا المعيار الذي اعتدناه لنوازن بينها ، فإننا لن نصل إلى نتيجة حاسمة ، ذلك لأننا لن نعرف الموجودات فى أنفسها ، إذ لو عرفناها لما تعددت الهندسات ، وإنما نحن نعرف تلك الموجودات عن طريق الأفكار والتصورات التي يخلقها عقلنا ليفهمها بها ، فتلك الهندسات وسائر التصورات العلمية ، إنما هى خلق واختراع عقلى وليست تصويراً وتمثيلا للأشياء ، فاذا نظرنا اليها من حيث هى تمثيل صادق ومطابق للأشياء ، فإننا لن نصل إلى نتيجة فى معرفة أيها المحقة وأيها المبطلة ، لذلك يجب أن نضع معياراً جديداً لمعرفة الحقيقة غير المعيار الذى تعودنا استعماله .

معيار الحقيقة الجديد هو العمل

والآن ماهو المعيار الجديد الذى يجب أن نستعمله لتمييز الحقائق ؟

لأجل أن نفهمه يجب علينا أن نتذكر أن أسلوب الحياة في هذا العصر — وخاصة فى أوروبا وأمريكا — يجعلنا ننظر إلى الناس والأشياء من وجهة عملية بحتة . فنحن الآن إنما نقدر قيم

الناس والأشياء بقدرما تدره من نفع وما تجيء به من فائدة في الحياة العملية ، فالنجاح في الحياة العملية هو الذي يرفع الناجح و يعطيه قيمة ممتازة ، والفشل فيها يسلبه كل قيمة له . ومن ثم يتضح أن منطق الحياة الحاضرة يحتم علينا أن ننظر إلى « العمل » على أنه معيار سليم صادق في تقدير القيم أياً كانت .

ولم ير مفكرو العصر الحديث بداً من تطبيق هذا المعيار على الأفكار والمعاني وكل ما يكون معارفنا الانسانية ، فما كان منها مؤدياً إلى نتائج مفيدة في الحياة العملية يجب أن نعترف له بقيمة خاصة فنعتبره حقيقة ، ومالم يكن مؤدياً إلى نتيجة ما ، يجب أن نسلب عنه كل قيمة فنعتبره باطلا .

والأفكار هي قبل كل شيء اختراعات نخترعها كما نخترع الآلات لاستخدامها والاستفادة منها . وهي في أنفسها ليست حقيقية ولا باطلة ، وإنما هي تكتسب إحدى هاتين الصفتين بتطبيقها واستعمالها في الحياة العملية ، فإن أنتجت فائدة انتقلت إلى عالم الحقائق ، وإن لم تنتج فائدة ما ظلت في عالم البطلان . ويشبه شلر ، الفيلسوف الانجليزي ، أفكارنا قبل إنزالها إلى ميدان العمل بمرشحي البرلمان . فالمرشح البرلماني لا يصير عضواً حقيقياً حتى يخوض معركة الانتخابات ويحرز فيها نجاحاً كافياً يؤهله الدخول في عالم النيابة ، كذلك الفكرة المرشحة إلى أن تصير حقيقة ، تظل فكرة مرشحة حتى تخوض معركة العمل وتحرز فيها نجاحاً كافياً ، عند ذلك فقط تصير الفكرة عضواً في عالم الحقائق . والنجاح في الحياة العملية معناه أن الفكرة التي نخترعها تزيد في سلطاننا على الأشياء ، وتبسط من نفوذنا عليها ، وتدر علينا فوائد مادية أو أدبية ، وبالجملة تملأ فراغاً في حياتنا لم يكن يملأ بدونها .

وإذا أردنا أن نجمل ما تقدم في عبارة موجزة فيمكننا أن نقول : إن أفكارنا كلها إنما هي اختراعات ككل الاختراعات الآلية ، وهذه الاختراعات لا تصير لها قيمة ما أو حقيقة ما حتى تقوم بخدمات عملية نفيسة ، لذلك يقول منشيء هذا المذهب العملي وليم جيمس : « إن امتلاكك لمعان حقيقية معناه امتلاكك لآلات نفيسة للعمل » (ص ١٩٥ من كتابه « المذهب العملي ») .

المذهب العملي والحقائق العلمية

وهذا المذهب العملي يتقدم لتقرير كل الحقائق من أي نوع كانت حتى الحقائق العلمية ، فليست الحقيقة العلمية عند أنصار هذا المذهب اكتشافاً لأمر موجود ، وإنما هي اختراع لأمر مفيد نافع يؤكد نجاحنا في الحياة ويمد من سلطاننا على الأشياء . فمثلا في علم الفلك ، كان يقال : إن الشمس تدور حول الارض ، ويقال اليوم : إن الأرض تدور حول الشمس .

فأي الفكرتين أصدق وأحق ؟ يقول هنري بوانكاريه ، العالم الرياضي الفرنسي « إننا لا نستطيع أن نقوم بتجربة لاثبات صحة إحدى الفكرتين بحيث تصير إحداها ممثلة للواقع والأخرى لا تصير كذلك ، فالفكرتان من هذه الوجهة متساويتان ، ولكنا إذا نظرنا اليهما من جهة النتائج العملية المترتبة عليهما فأن الفكرة الاخيرة تفوز بلقب « الحقيقة » وذلك لفائدتها في تفسير جملة من المشكلات مثل اختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الفصول ، والخسوف والكسوف ، والمد والجزر ، الى غير ذلك مما لا قبل للفكرة الاولى على تفسيره . فالفكرة الاخيرة مفيدة عملياً ولذلك فهي حقيقة . والأمر كذلك عند بوانكاريه في حسم الخلاف بين الهندسات التي مر بنا ذكرها . فليست إحدى هندسات اقليدس ولو بتشفسكي وريمان حقيقة في نفسها باعتبار أنها تمثل الواقع ، فهي كلها من هذه الوجهة متساوية . ولكننا إذا نظرنا اليها من الوجهة العملية ، أي من حيث النتائج المفيدة التي نستمدها من كل منها ، فأنا سنجد أن هندسة اقليدس تفضلها جميعاً لأنها اكثر ملاءمة وبساطة وسهولة ، ويمكن ان يقال مثل هذا في سائر الحقائق العلمية .

ومما تقدم يرى القارىء أن المعيار الجديد لمعرفة الحقائق هو « العمل » فليست الحقيقة العلمية شيئاً نتلقاه من الخارج وتخضع له عقولنا ، وإنما هي شيء نخترعه من لدنا ونخضعه نحن لعملنا وفائدتنا وخيرنا ، فأن أفادنا حق للاختراع أن ينعت بأنه حقيقي .

المذهب العملي والحقائق الدينية والاخلاقية

معلوم أن أهم ما جاءت به الأديان فكرة « الله » وأهم مبدأ في الأخلاق فكرة « الحرية » ولقد تخبطت المذاهب الفلسفية في تقرير هاتين الفكرتين تخبطاً ليس عليه من مزيد . فمنذ فجر التاريخ الفلسفي نشب الجدال عنيفاً بين المذاهب المادية والمذاهب الروحية حول فكرة « الله » وآخر ما وصلت اليه المذاهب المادية أنها تقول : إن الله غير معروف وإن الكون إنما تكون بفعل القوى الطبيعية وحدها ، أما الروحية فتثبت بقوة تعدل قوة المادية أن الله موجود وأن العالم لم يكن إلا بفعله وخلقه ، فالخلاف بين المادية والروحية عميق ، ولا يمكن أن يفض إذا رجعنا الى معيارنا العتيق في تمييز الحقائق ، لأن التجربة التي أحدثت العالم شيء مضى لا سبيل إلى إعادته للتثبت من هذا الاحداث ، أكان بفعل الله أو بفعل القوى الطبيعية وحدها ؟ فالمادية والروحية من هذه الجهة متساويتان ، ولكنا إذا نظرنا إلى « النتائج العملية » المترتبة على كل منهما فسيفض الخلاف وتترجح كفة الروحية بلا ريب ، ذلك لأن المادية تنبئنا بأن النهاية التي سيصل اليها الكون وفقاً لتطور القوى الطبيعية هي الموت والفناء والعدم ، وهذا ما يأباه رجاء الانسان وما لا ترضاه آماله الطامحة إلى الخلود ، بينما الروحية تنبئنا بأن العالم قد يزول

باصطدام الكواكب أو بفقدان الحرارة، ولكنه مع ذلك لن يصيبنا مكروه لأن الله الذي قدر هذا الزوال يظل يرعانا ويحقق آمالنا. فمن الوجهة العملية البحتة نجد أن الروحية مذهب منشط ومرفه ومطمئن للنفس على المستقبل السعيد الذي تعدنا به الأديان، فهي حقيقة إذن.

وكما تقدم المذهب العملي لحسم النزاع بين المادية والروحية فأثبت وجود الأله لضرورة عملية بحتة، كذلك هو يتقدم لحسم النزاع بين مذهبي الجبرية والحرية فيثبت أننا أحرار غير مجبورين ولا مسيرين في أفعالنا وذلك لضرورة عملية أيضاً. فاذا نظرنا إلى المذهبين من حيث النتائج فأنا نجد أن الاعتقاد بالجبرية مثبط للهمم قاتل للارادات مضعف للآمال ميئس من الحياة، في حين أن الاعتقاد بالحرية مشجع للهمم منشط علي العمل موفر للانسان أسباب حب الحياة والجهاد فيها، فالحرية حقيقة أيضاً.

فالعمل هو الذي يعطي فكرتي الله والحرية قيمتها الممتازة، فاذا نظرنا اليهما مجردين عنه فيصيران من الألفاظ الفارغة التي لا معني لها البتة. هكذا يدعى المذهب العملي أنه يفسر كل الحقائق علمية ودينية وخلقية بمعيار « العمل » فبدلا من النظر الي الحقائق في أنفسها ينظر اليها من حيث قيمتها العملية. وهذا انقلاب في أسلوب التفكير خطير.

محمد ثابت الفندي
ليسانسيه في الفلسفة

الدين المقارن والبعث والميزان

(بقية المنشور على الصفحة رقم ٩٣١)

وأما في الاسلام فقد ورد ذكر الميزان في الكتاب العزيز في مواضع كثيرة الدلالة على الدقة في العدل في « يوم الحساب » بحيث تكون قيمة المرء على قدر عمله لاعلى قدر دعاويه. ففي سورة الأعراف في الآية الثامنة: « والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون» وفي سورة الانبياء في الآية السابعة والاربعين: « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين. »

عبد الرحمن شهبندر